(٣)

مشروع القراءة للجميع

وشروط النهضة واحترام القانون

سيظل مشروع القراءة للجميع الذي ارتبط باسم السيدة الفاضلة سوزان مبارك شاهدا على عدم استسلام المصريين لعوامل الفناء التي حذر منها أحمد شوقى في مطلع القرن العشرين في قصيدته التي قال فيها:

إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داءاً للشعوب مبيدا

فالجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا

ولذلك فإني أشاطر د. سمير سرحان قولته في روايته لتاريخ "مكتبة الأسرة" في أن صورة السيدة سوزان مبارك ستظل على كل كتاب وفي كل بيت تذكر كل مصرى بأن الحلم الحقيقى ليس بالمال والماديات وإنما هو المعرفة، فالمعرفة هي الوطن، فإن إشاعة المعرفة عن طريق تيسير سبل القراءة وتقريبها الى الناس كما تقرب إليهم الخدمات الحيوية كالعدالة وغيرها، هو بداية الطريق إلى بعث الحياة في الرموس وإنبات الرفات فيها بعد أن غلبتها عوامل الفناء.

والحق أن المعرفة هي الطريق الحتمى لنهضة الشعوب، وأن التزام الدولة بتسهيل المعرفة ومساهمة مشروع القراءة للجميع في ذلك هو اللبنة الأولى. فالمعرفة تعين على كشف الاستبداد وتعريته وتحصين الحقوق والحريات. ولذلك تتضافر قوى الجهالة والظلام على طمس المعرفة أو حجبها أو إشاعة الإرهاب الذي يركز على قمع حرية التفكير وحرية التعبير.

وفي غياب المعرفة تزدهر الجرائم وتكبت الحريات وتغلظ القلوب مع غلظة الأفهام ويستحيل تطور المجتمع وترتيب العلاقات بين أعضائه، بل وتنقلب القيم في المجتمع رأسا على عقب ويصبح الأمر كما يقول حافظ إبراهيم:

ويهضم فينا الإمام الحكي ويكرم فينا الجهول الغبي

فيزدهر النفاق على ما صوره شاعرهم :

فكم عالم قالوا له: أنت جاهل وكم جاهل صاحوا به: أنت عالم

فقاده ذلك الى اليأس من الكتابة واليأس من الثقافة فأنشد في يأسه مخاطبا مصر:

كسرت اليراع فلا تعجبي وعفت الكتابة لا تعتبي

ويروى عن قاتل الكواكبي قوله : " بالقراءة أتعبنا وبالقراءة قتلناه" اعترافا بوضعه السم على أطراف صفحات الكتاب حيث اعتاد الكواكبي أن يبلل أصبعه من لسانه وهو يقلب صفحاته.

فإذا كانت للقراءة هذه الخطورة في إصلاح المجتمع، وهي الأمر الأول من الله للإنسان حينما أمر نبيه محمدا بالقراءة ليصبح ذلك تكليفا وعبادة وليس ترفا وهواية، ولكي تتفاضل الأمم بمعدل القراء فيها وتواتر القراءة ونوعية ما يقرأ في مؤشرات تسجلها تقارير التنمية البشرية السنوية، فهل ينكر أحد أن الاستبداد والاستخفاف بالقوانين والانقلاب على مصالح المجتمع هو ضرب من الجهل وأن الثقافة وهي تهذيب العقول والنفوس عن طريق القراءة هي الحل؟

لقد قامت النهضة التعليمية في مصر في مطلع القرن العشرين وخاصة تعليم المرأة على فرضية هامة وهي أن التعليم يزيل مساحة الظلام فيعرف الناس واجباتهم فيؤدونها ويدركون حقوقهم فيتمسكون بها ويلحون عليها، ولذلك تسهم القراءة والثقافة في نقص معدلات الجريمة وازدهار وظيفة القضاء وانحسار المظالم وثقة الناس في نظام المجتمع.

ولكن هل يمكن لمشروع القراءة للجميع الذي يسر للناس كنوز الثقافة ومصادر المعرفة بأسعارها المعقولة بدعم من المشروع أن ينجح وحده في تحقيق أهدافه الثقافية والاجتماعية الكبرى؟

أعتقد أن المشروع يضمن تيسير القراءة، ولكن يبقى الحافز الى القراءة معدوماً. صحيح أن القراءة تغذي فضول الإنسان وتستجيب لغريزة حب الاطلاع والمعرفة كما يقول الفلاسفة، ولكن الحياة في مصر الآن تحتاج الى شروط أخرى موضوعية يلزم تحققها حتى تكتمل للمشروع عوامل نجاحه.

والشرط الأول هو محاولة إعادة الاعتبار للثقافة كقيمة، وللمثقف ودوره في المجتمع، وهذه قضية معقدة؛ لأنها تمس أزمة المجتمع في نقطة التقاطع بين ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وميزان الأخلاق فيه.

ولا بد من المصارحة حتى نقتحم الداء بلا حساسيات، فالمثقف يشعر أنه مشروع استثماري فاشل، ينظر المجتمع إليه بإشفاق؛ لأنه كان يجب أن يستثمر حواسه ووقته وماله فيما يدر عليه من مال ومكانة سريعة تعوضه عن هذا الاستثمار.

كما أن المثقف الحق هو الملتزم بقضايا مجتمعه ووطنه ولا يمكنه أداء دوره في بيئة تعاني أزمة في حرية التعبير وأزمة في المصطلحات وأزمة في المدركات والصور والنماذج والقدوة. فعليه أن يهنئ من تجب تهنئته لحصوله على الجائزة وفي نفسه ريب من ظروف منحها، فيسهم بهذه المجاملة في التدليس على العامة، فيثبت فينا ما كان يجب أن يسقطه، وهكذا، وهي قضية كبرى لا نظن أن المجال يتسع لمعالجتها.

ولكن مشروع القراءة للجميع خطوة واعدة تستحق الاهتمام والتطوير والتقويم الموضوعي، كما تستحق صاحبة المشروع منا كل الامتنان والعرفان.